قصة

أشجار اللوز المزهرة

جمال بن عبد الله الحيان

الترقيم الدولي :

6_009_4568_23

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخل والصديق

تقديم الكاتب :

ويبقى رهان جنس أدب القصة قائما بذاته ، معبرا عن الذات

والكون والوجود ، موظفا أساليب القصص والحكي ليوصل فكرة أو معنى

أو ينبهنا لشيء ما ...

ليكون السند للقارئ مبحرا به في روضات الحقيقة والواقع ...

لقد أصبحت القصة تتجاوز كل معاني الدلالة لتصبح أداة تحتاج

منا تأويلا بعيدا عن كل أشكال الموضوعية والأذاتية ، فهي إرادة حرة تمثل

مستقبل القراءة ...لقد أوجدت لنفسها مكانا في المستقبل .

جمال بن عبد الله الحيان

تحت حواجبها المرسومة بأناقة و أناة ، ووجهها المستدير الطافح بالحياة ، والذي يغشاه الخمار الشفاف بدءا من أرنبة الأنف نزولا حتى منتصف صدرها ، ينفرش ضوء شعلة المكان ويصعد دخان التبغ إلى السقف قليلا ثم يتهادى ، التقطت العلبة والولاعة ووضعتها في جيب القميص وحدقت بالصورة المعلقة إذ بانت تفاصيلها وألوانها ، كانت واضحة رغم عتمة الدخان في الظلمة الشفيفة ، وجالت عيني في الأشياء المحيطة ، وبخطوات مهلة أمشي على أرض صلدة ، وأصوات خَفِرة في الأرجاء . كنت ضعيفا وهي بجواري ، أراها كما يراها الجميع . انصرفتْ ؛ ولمّا صرت وحدي عضضت أصابعي ندما على تلك الأوقات والفرص الضائعة ، وعلى أرفف مكتبتي طبقات غبار، طبقات كسل وخمول ، فأنا البطل الخنوع ، أطلقت زفرة خرجت من عمق غائر، وسمعت ضحكتها مطلقة صوتا خفيضا ، فتنصرم أجزاء الوقت لتقطع حبال الخجل ، فأشفقت على نفسي و انجرفت كالأحمق :

_ ألست تكدس الأخطاء يوما بعد يوم !؟

كان تحرجا من هلامية الجواب ، بل هرب من السؤال قبل الجواب ، وسيبقى سؤالا كالوشم ، كجرح غائر فيه .

إن البحر لا ينام ، وضميري كذلك ، بروح تائهة وليست بتائهة ، فسمائي ظلام يفضفض منها القمر هالته وحسب .

ارتطمت أمواج عشقي على رصيف حبها الاسمنتي ، الليل والخجل والذكرى ، أشياء انكسرت في بريق عيني ، فبدأت أثرثر جبنا ، وتنداح انصبابات دفقات العرق على مستويات الجسد ، الجو حارّ وتلك المشاعر أيضا ، أحس به يسري في المسام وحين تخرج الشهقة عند الارتطام بالماء البارد أتذكرها فقط، إنها برودة الماء وبرودة المشاعر ... على الرقبة والصدر وأحيانا حتى الأقدام وأصابعها مضمّخة ببرد الفجر وأشواكه القصيرة .

_أيها الرعديد (يخاطبني ضميري)

إنها فلسفة الحياة وليالي العراء ، إنها مكابرة عنيدة لفرض الذات ونيل الاعتراف ، صفة عدم الاكتمال ، نقيصة النقص ونقطة سوداء خفية في حياة الظلام .

أرحت جذعي إلى جذع شجرة اللوز مسترخيا ألتقط يقظتي من إغفاءة خاطفة ، بينما ساقاي ممدودتان . أنظر إليها بجلائها وجلال اكتمالها، فحين يهدأ الكون ويستريح ، وتنطفئ الأنوار، تبقى شمعة غرفتها مضيئة في الكون الفسيح ، تحت ومض القمر وجنون البحر ونجوم السماء وقصف الرعد وزوابع الصحراء .

تخرق نظراتي طول الطريق لتصل لعتمة الدار وتنسل لغرفتها وتستأنس بعيونها ، فتماوجت الأعماق وهي تلتطم بصور الماضي ، صور الطفولة البريئة والحب العذري الحالم ، ودائما عند تلك الشجرة المباركة المزهرة يتغلغل سحر إلى روحها وفي الهواء نسمة ريحان تموج سرمدا على رؤوس زهور شجرة اللوز الذاهبة نحو النجوم .

هي حرارة الحب الناغلة في العشب الرهيف الذي يلف المكان ولمعة القمر شاهدة ...فاسألوها ...!؟

تنخطف وخشونة التراب ، فقد حان الوقت لأكون صريحا مع ذاتي ، كي أطرد الفزع من كياني ، وحذائي قهوة شربتها بدون ارتواء ، سيجارة ، ولاعة ، مذياع قديم وعصًا أتوكأ عليها ، لقد ضاعت مني الأيام وأسرني الخوف ، لقد ضاع كل شيء ، إنها عشر سنين مرت كلمح البصر، كنت

صغيرا حينذاك ، خائفا ، مكتفيا بأناشيد صراصير الليل ، معزوفة لا تنتهي ، سهرة كل ليلة ، وفجأة سكون مباغث كالسكتة المفاجأة ، وظلام ممتد على طول العالم ، كأن كل شيء ير اقبني وينتظر ماذا سأفعل ، حتى النجوم والقمر، فمن عمق الأرض اهتزاز يدفعني للأمام .

أرهقني السهر، وخيوط الأمل ، تقيّأت فجاءة ، فقد تخبط ما في معدتي فرصة الانفلات ، لقد دهمني الغثيان أشد وطأة .

ولكني غدا ...

فبلهجة آمرة مثل سطوة سكين ، أمرت نفسي أن غدا هو الأخير، لم أتريث طويلا ، نهضت من مكاني و اتجهت للمنزل كي أستحم وأستريح ثم أنام .

اتجهت للبيت مسرعا دون أن أرفع بصري فتسحرني مخلوقات الليل الشريرة ، تلك التي كبلتني عن حلمي لسنوات ، لقد هاجمني شعور بالفشل ، شعور كالقهر، أصبح غصة مريرة ، لا ينفع معها شربة ماء ولا ضربة على الظهر، فتولدت دمعة الاشتياق ، دمعة الفرج القريب .

في الصباح الباكر، استيقظت فاقدا شهية الطعام ، عالجت جوعي الرهيف بسيجارة وكوب ماء ، وتتوالى ضربات قلبي وتتسارع ، شعور يوحي بمرارة الولادة ، هي السنين التي توالد فيها الأنين ، ربما خانتني الكلمات .

نسيم بارد وشجون يوحي بالأمل ، احتقن وجهي واغرورقت عيناي :

_هل هناك من سيساندني !!الا أحد ...!؟

أخاطب الريح والزمهرير والشمس وحقول الزعفران ، فسكتّ منتظرا أن تقول شيئا ، فهبّت ريح قوية حملت معها أوراق الشجر وزهور الياسمين ، أرحت ظهري على عمود بقرب بيتها ثم قلت :

_مالي وفلسفتي ، أناشدها بلا حقيقة ، شك من وراء شك .

أخاطب ما وراء الطبيعة كالأحمق منطلقا ومستعينا بكلمات مكتوبة ، فتماديت في نهج لا أصل له، تارة أنا الشجاع ، وتارة تُحطم جرأتي أمام إقدامي على طرق باب بيتها .

لا أنفك عن مذياعي الصغير الذي كان وفيا للكفاح مع فيروز، أنشودة السلام ، أحتاج الشجاعة ...فكيف أفوز ...وكيف أصل للحقيقة .

طرقت الباب طرقات خجولة ، انفتح وإذا بثوب ذهبي وشعر طويل حتى الركبتين ، تمهلت واستأذنت ثم دخلت خنوعا خائفا مما قد يحطم قلبي، كان فمها مطليا ببريق يلمع ، راقبتها وهي تدلف للداخل وقبل ذلك قالت بصوت خفيض :

_لماذا هذا التأخر...!؟

لم أصدق قيمة الشوق من الطرف الثاني و أنا الذي خَبرْتُ الحب ولطالما كان من جهة واحدة فقط ، سرت على غير هدى ، أتحسس ذقني غير المحلوق ، وملامح أعمامها من مشارب شتى ، وعطورا قوية نفاذة وعطرها تفوق على كل شيء ...

قلت : سأدمنه إلى الأبد ...

بدأت أطلق لحواسي تلك القدرة للاستكشاف والاستشعار في هذا البيت كي ألتقط موجودات المكان ، وقفتْ بجانب غرفة مجاورة للمطبخ بقامتها المديدة الناهضة وغرتها العالية مثل الأفق .

اقتربتُ من الصالون فضاقت المسافة بيننا ، ولمعت ومضة في عينيها ومانبست ، وارتفعت عينا جدتها العجوز تسألان :

_مرحبا بضيفنا الكريم ، ما طبيعة عملك ؟ أين أبواك ؟ هل تعيش لوحدك ؟ أليست عندك عائلة؟ هل لديك أقارب؟هل تعرف ابنتنا ؟ منذ متى و أنت تعرفها؟ أين التقيتما.....؟؟

تلك العجوز أزعجتني كثيرا ، تفتّحت حواسي وتيقظ كل من في البيت وأسكتوها ، نطق أحد أعمامها قائلا :

_مرحبا بك يا ولدي ، كنا ننتظرك منذ زمن ...؟!

صدمت و انفلتت مني تمتمات ، من ... أنا ...كيف ...و أنا لم أخبر أحدا ...لم أفهم ...!؟

نطقوا كلّهم كأنشودة تدربوا عليها لسنوات طوال :

نعم صحيح ، يا حارس الليل تحت شجرة اللوز المزهرة .

انتهى بفضل الله وكرمه .